أساور من حديد

اسم الكتاب:	أساور من حديد
اسم الكاتب:	محمد محمود أسعد
تصميم الغلاف:	فريق شغف
المراجعة اللغوية:	شيماء مبروك
الإخراج الفنيّ:	جمال عبدالرحيم
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	26362 / 2023
الترقيم الدولي:	978-977-8973-47-1

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/arabiclibrary2017
	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

أساور من حديد

(بيدوفيليا أم شيء آخر؟!)

رواية

د. محمد محمود أسعد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهـــــــداء

سلامًا إلى كل الصابرين والصابرات

سلامًا إلى من عاش النزوح فعرف الفارق فبقي متمسكًا بقيّمه وأخلاقه موقنًا معنى النقاء، فأحب الحياة، وعشق تفاصيل الكون، وغمر روحه حبًا نقيًا...حبًا لله والناس والأرض.

أخوكم محمد

تقديم*

أحسب أن المؤلف د. محمد محمود أسعد أجاد في متن روايته (أساور من حديد) حينما قال:"أبدًا لم تكن رزايا الحرب فقط من همجية قتل برع فيها متقاتلون كانت فيما قبل بعيدة كل البعد عن الثقافة السورية المعروفة بالرأفة والرحمة، ولا من تعددية خصوم، ولا من صعوبة تطبيق لرقابة أممية لمجريات الاقتتال، ولا من استخدام أسلحة جديدة ومتنوعة على شعب لا يملك قوت يومه، ولا من رصاصة طائشة، ولا من برميل متفجر، ولا من صاروخ أعمى، إنما كانت أيضًا من جشع تاجر، ومن طمع مؤجر، ومن مستغل فرص وعوز أسر، ومن انحدار قيم.."

حقًا.. تلك هي الحروب دائمًا تزيد في مساوئ أصحاب النفوس الضعيفة وتُظهر هشاشة قيمهم الأخلاقية.

لم أبالغ إن قلت أن في بداية قراءتي للرواية أدمعت عيني لما يعانيه النازحون أينما كانوا، وأيقنت حقيقة فطرة الإنسان مهما كان كبيرًا أم صغيرًا، رجلاً أم امرأة في حرصه على البحث عن أمان منشود كمتطلب رئيس في استمرارية الحياة كما بيّنه لنا العالم أبراهام ماسلو في هرمه المعروف بتدرج الحاجات عند الإنسان.

تناولت الرواية في بداياتها معاناة النازحين وشدة فقرهم وصعوبة خروجهم من بيوتهم رغم الضرورة الملحة حفاظًا على

أرواحهم، وصورت لنا كيفية وداعهم للمكان الذي عاشوا وترعرعوا فيه. ولعل ما زاد من إصراري على متابعة قراءة الرواية حتى الكلمة الأخيرة في جلسة واحدة هو أسلوب السرد والتوصيف المتقن الذي اتبعه المؤلف من خلال تصويره المكاني والزماني لأحداث الرواية وتسليطه الضوء بين فينة وأخرى على الشخصيات الرئيسية في الرواية والحالة النفسية والمعاشية لكل منهم، ولعلي اعتبر ذلك ميزة حسنة نجح فيها المؤلف في استخدام أسلوب التشويق والسرد القصصي، الأمر الذي عزَّزَ شعوري بالامتنان لطريقته المنطقية في معالجة الموضوع الرئيس الذي تدور حوله أحداث الرواية "الزواج المبكر وزواج القاصرات من كبار السن" حيث سلّط الضوء عليه من جوانبه النفسية والدينية والاجتماعية.

صحيح أن موضوع زواج القاصرات ليس بالجديد على مجتمعاتنا العربية لكن أن يصل لحد تزويجهن من طاعنين بالسن فهذه ظاهرة تستوجب الوقوف عندها مليًا لمعالجتها قانونيًا وعلميًا ودينيًا لما لها من نتائج نفسية وجسدية واجتماعية وخيمة ترجع على الزوجين معًا من ناحية وعلى المجتمع من ناحية أخرى، من المتوقع أن الزوجة الصغيرة ستعاني من برود عاطفي بعد شهور قليلة من زواجها، وما غزل ابنة الستة عشر ربيعًا.. بطلة القصة إلا أنموذجًا لضحية قُدمت قربانًا في سبيل تحسين وضع أهلها المادي، أما الزوج الهرم (أبي حسين.. الذي تجاوز السبعين) سيظهر الشيء الكثير من

التصنع والمغلاة في أمور هو أضعف من أن يصل إليها إلا من خلال طرق ملتوية.

حقاً، إن موضوع زواج القاصرات.. موضوع معقد يتطلب مناقشته كما فعل المؤلف من النواحي النفسية، والقانونية، والأخلاقية.

من الناحية النفسية، تشير الأبحاث إلى أن زواج القاصرات غالبًا ما يرتبط بمشاكل صحية ونفسية واجتماعية للفتيات المعنيات. فالفتيات الصغيرات غالبًا ما يكون لديهن ضعف في فهم المشاعر والتحليل واتخاذ القرارات الصحيحة. وقد يعانين الأمرين من الفقر العاطفي وعدم الاستقرار النفسي والتعرض للعنف والإساءة.

من الناحية القانونية، يعتبر زواج القاصرات في كثير من الدول غير قانوني أو مقبول فقط في حالات استثنائية، حيث يهدف القانون بشكل عام لحماية حقوق الأطفال وضمان حياتهم وتعليمهم وصحتهم وسلامتهم.

من الناحية الأخلاقية، يعتبر زواج القاصرات انتهاكًا صريحًا لحقوق الإنسان الأساسية، مثل حقوق الحرية والكرامة والتعليم واختيار الشريك. كما يعتبر استغلالاً للطفولة وضربًا للمساواة بين الجنسين. وبناءً عليه، ينبغي على المجتمعات والحكومات العمل معًا لوضع تشريعات صارمة لمنع زواج القاصرات وتوفير الدعم اللازم

لهن. بحيث يجب تقديم الدعم النفسي للقاصرات اللواتي تم تزويجهن بالقوة، وتوفير الفرص التعليمية والاجتماعية والاقتصادية لهن للمساهمة في تمكينهن ومساعدتهن على تحقيق ما يصبون إليه من إثبات وجود واستمرارية حياة..

حقاً يجب علينا جميعاً أفرادا وجماعات، مؤسسات وحكومات الوقوف بحزم في معالجة موضوع زواج القاصرات باعتباره مشكلة اجتماعية وقانونية، وعلينا أولاً تعزيز الوعي وتعديل القوانين والسياسات لمنع هذه الممارسات الظالمة متى حصلت وتجريم كل يد آثمة ساندت بذلك. وتوفير الدعم العاطفي والنفسي للفتيات القاصرات المتزوجات لمساعدتهن على التأقلم مع الظروف الصعبة المحيطة بهن وتحسين جودة حياتهن النفسية كي يبدأن حياتهن العملية من خلال تمكين مرتقب.

مرة أخرى، شكرًا وألف لمؤلف هذا العمل الروائي على طرح موضوع الزواج المبكر والتركيز فيه على زواج القاصرات من طاعنين بالسن ومناقشته من جوانب متعددة بأسلوب سرديٍّ سلسٍ وشائق.

*الدكتورة مريم علي اليماني
عمان- الأردن

مكروبون

ضاقت بهم الدروب واختنقت فيهم العبر من مضاعفات حرب أحرقت الأخضر واليابس عند معظم السوريين، حرب لم يكن لهم فيها أصبع لا من قريب ولا من بعيد لكن تكلفتها كانت باهظة عليهم وعلى الجميع، حرب أول ما أخذت منهم الغالي الذي لا يعوّض، قبل شهور رحل الأب والمعيل لهم إثر انفجار لغم أرضي فيه، تطايرت أشلاؤه في السماء واختلطت دماؤه بالتراب فزادته طُهرًا وحمرة، حرب دامية فُرضت على الوطن بدون سابق إنذار، لم تُغلق فاتورتها بعد ولم تُحسب التكلفة الإجمالية، يومًا بعد آخر تتزايد الإضافات وتتضاعف التكاليف، فدائمًا الحروب تشوه البشر جميعًا الكل فيها خاسر. هروبًا من مفاجآت الحرب ومضاعفاتها توجه معظم أهالي الجبل أفرادًا وجماعات نازحين صوب أقصى الشمال.

قبل نزوحهم، حاولوا كغيرهم التمسك قدر الإمكان بمكانهم، انتظروا للحظة الأخيرة لكنها جاءت فجائية وقاسية، في أبريل/نيسان عام 2015 اشتعلت الأرض بمن فيها وطاش الحجر، على عجل تركوا بيتهم ورحلوا مع جيرانهم بعدما أصبحت القذائف تتساقط فوق بلدتهم كوابل من مطر، ويعلو صوتها في السماء كالرعد وتومض نيرانها كالبرق، يومها لم يستطيعوا الانتظار للحظة

أخرى. خوف جماعي أجبرهم مع الجميع على الهروب إلى مكانٍ آخر.

بوجوه ذابلة وقلوب متصدعة خرجوا من بيتهم مقهورين يائسين مما هم فيه لا يعرفون مقصدًا، فرائصهم كقلوبهم كانت ترتجف خوفًا وهم يصعدون إلى سيارة كبيرة تنقلهم هم وجيرانهم على أصوات دوي انفجارات في أماكن قريبة جدًا منهم قد تصل إليهم في أي لحظة فتحرق المكان بمن فيه كما فعلت في أماكن كثيرة. على عجل خرجوا من بيوتهم وكأنهم صرعى لا يعون ما يفعلون.

بدموع هاطلة ووجوه واجمة تقطر ألمًا وحنقًا على ما هم فيه من خوف وحيرة اندفع النازحون كسيارتهم الكبيرة في درب نزوح بدأ بخطوة رجَوها ألا تكون طويلة، في خروجهم كان الجميع مُودِّعًا ليس للبشر وإنما للحجر، لم يبق بعدهم أحد، الكل كان خائفًا مرتجفًا من مغبة القادم لا يمكن لأحد البقاء في مكانه إلا الجمادات التي أصبحت كأنها أعجاز منقعرة أوجفتها ريح صرصر في يوم نحس انتزعت فيه الكائنات الحية من مراقدها لتصبح في هرج ومرج.

حركات لا إرادية كانت القاسم المشترك بين الراحلين، عيون الكبار وأيادي الصغار كانت في حالة وداع، كل منهم يُودع على طريقته ما تبقى وراءهم من دور وبيوت كانت يومًا ما لهم الملاذ الآمن.

في كابين السيارة، حُشرت النساء والبنات بينما صعد الرجال والصبيان إلى الصندوق حيث نثرت الأغراض فيه دون ترتيب واختلط الحابل بالنابل، صمت رهيب ساد داخل الكابين مزقه صوتها الهادر وهي تندفع في حنايا الطريق الجبلي كان يكسره بين فينة وأخرى صوت بكاء وحشرجة من غزل وأمها وأخريات والتفاتات بين لحظة وأخرى للخلف تتلاقى فيها عيونهم اللامعة مع بقايا دروب ودور راحت تصغر لهم أكثر كلما ابتعدوا عنها.

كانت الحيرة رفيقة النازحين في كل شيء، احتاروا إلى أي مكان نزوح يتوجهون. فقط عرفوا في نزوحهم جهة الشمال، كل الأماكن كانت لهم متشابهة لا يعرفون فيها أحدًا، ما يهمهم كان مكانًا قريبًا يأوون إليه بسلام إلى أن تهدأ الانفجارات ويعودون مع أقربائهم إلى بلدتهم في الجبل، فضلوا أن يكون المكان قريبًا لأسباب منها قيمة آجار السيارة المتشارك مع جيرانهم، لكن جاءتهم النصيحة أن يبتعدوا أكثر نحو أقصى الشمال لخطورة الموقف، أغراضهم، لباسهم، فرشهم، أثاثهم كلها تركوها في بيوتهم، لا أحد منهم كان يتوقع أن نزوحهم سيطول لسنوات.

دموع غزل وأمها ونحيبهما في كابين السيارة الناقلة أخرج سائقها عن صمته فصرخ في وجههما قائلاً:

- لماذا تبكون، كيف لكم أن تبقون وسط هذا الخطر المتزايد، كفاكم بكاءً، دعوني أركز في الطريق، من تتحدون في بقائكم؟

سارت السيارة بالنازحين صوب أقصى الشمال في دروب متعرجة كواقعهم المأزوم بعيدًا عن الطرق المستوية المعتادة التي كانت بالأمس القريب عامرة بسالكيها، مزدحمة بهم كونها كانت رئاتهم المليئة بعليل النسيم، وأكتافهم المتوسعة بانتشاء، ورؤوسهم المرفوعة بفخر. لم تكن حنايا الشمال يومًا ما كاليوم شرايين تقطع الحياة بدلاً من أن توصلها تطفو عليها رائحة بارود خانق يفرّق كل جمع ويشوه كل جميل.

سارعت السيارة الناقلة خطاها في تلك الدروب المتعرجة، خوفًا من استهداف مفاجئ لها أو لأي تجمعات بشرية ثابتة أو متحركة، وابتعادًا عن أي مفاجآت طريق وحواجز غاب عن أفرادها تقدير ظروف طارئة أودت بأصحابها الفارين من هول المخاطر إلى ترك بيوتهم وأرزاقهم، بحثًا عن مكان يسترجعون فيه جزءًا من عافيتهم المسلوبة وأمنهم المفقود.

سار النازحون صوب أقصى الشمال ودارت بهم الدوائر، لكن أملٌ واحدٌ كان يُمنّيهم برجعة قريبة لبيوتهم ولسان حالهم يقول:

نرجوك يا زمن، لا تقسو على بلدنا أكثر، هو دائما رافل في قلوبنا، لا نبالي ببعض خدوش في مراياه، ولا نُعطي اهتمامًا لجروح في سراياه، هو نهرنا الدافق يرقص مهما تألم ويضحك مهما اشتكى، معه وفيه تتغذى أحلامنا وتنتشي آمالنا.

لا تقسو على بلدنا يا زمن، صوته أصبح بحيحًا، وسقفه أمسى سطيحًا، غيومه لا تجود بمطر بعد أن حُجبت عنه شمس النهار وغاب عنه ضوء القمر.

بلدنا يسافر معنا أينما كنا، هو عمق لتاريخنا المجيد، في دروبه وقلاعه، في جباله وسهوله، في تينه وزيتونه، في ناسه الطيبين ترى المحبة عامرة، والتآخي عنوان، ترجو طيوره المهاجرة أن تعود إلى أعشاشها فيه سالمة أمنة تعيش فيه كما يعيش فيها بعد أن يعود إليه الألق والبهاء،

بلدنا شريان وقلب متدفق بالحياة، حبه في كل حالاته وأحواله واجب علينا ونبقى نحن البشر من صنعنا تاريخه وحاضره ونحن من يُخطط لمستقبله أو يمحوه

لا تقسو عليه يا زمن، كفاه حزنًا وألمًا، في ربوعه يهيم الحذر، والتسليم شئنا أم أبينا بالقدر، فيه يُصنف الأهالي درجات، ترفٌ غني وإن استبسط، وفقير مدقع وإن استغنى، ناسه بين أحياء وأموات، فيهم وجوه مرحة وأخرى هائمة في سبات، بعض أحياؤه

أموات لا يرتجى منهم معروفًا، ولا يلتمس منهم أي تضحيات هم أقرب إلى تجار الفرص.

عندما يضحك تاجر الحرب، اعلم أن وراءه بشر يبكون، تصعب في وجوههم الحياة ويضيق فيهم المكان، ويقل في أيديهم الكثير، وتطول عليهم الدروب.. دروب الشقاء، دروب ترى الناس فيها سكارى وما هم بسكارى، دروب لا ينفع أخ أخاه ولا جار جاره إلا ما رحم ربي، دروب يندر فيها التعاون ويصل إلى حدوده الدنيا، دروب تَشُوه فيها الوجوه ويجف ماؤها، دروب تجعل الأغلبية في حال يرثى له وحال لا يعلم به إلا الله. دروب لم يكن فيها البلد أبدًا يومًا ما هكذا شاحبًا باهتًا رغم كل ما فيه من نضرة وجمال كانتا يومًا ما له ميزة جميلة يتغنى بها قاطنوه.

*****

رغم كل ما كان في يوم نزوحهم من ضنك، أبت طبيعة الجبل إلا أن تحدثهم عن جمالها الساحر الذي يأخذ بمجامع النفوس ويترك العقول مشدوهة من عظمة الصانع، كأنها أرادت أن تقول لهم "ها هنا أنا باقية انتظركم لا تطولوا الغيبة".

رغم كل ما كان فيهم من سهود، كل واحد منهم كان يقبع في مكانه داخل السيارة الناقلة مستسلمًا لمصيره القادم لا يعلم فيه إلا الاتجاه للشمال، وخيمة منتظرة فيه.. كان يمضي خط مسيره

بطرقات الجبل المتعرجة كأنه يراها لأول مرة.. يُراوح بنظراته البلهاء بين رحبة سماء صافية وخضرة طبيعة آسرة.. طبيعة مضيافة لطالما فتحت ذراعيها مرحبة بكل قادم.

تمر ساعة ويصل النازحون إلى أقصى الشمال، في طريقهم تتدرج تضاريس الطبيعة وألوانها من جبل عالٍ أشم إلى سهول حجرية وأخرى ترابية ومن خضرة دائمة إلى صفرة فاقعة وأحياناً محمرة، صمت مريب يهيب بالجميع أن يكون مستقبل أيامهم مرهون بتلك اللحظات الحرجة التي تشهدها المنطقة، هدف واحد وخوف متبادل جمع كل النازحين ألا وهو الهروب من نار والوقوع في جحيم، لم يكن النزوح لهم إلا مخرجًا وهروبًا من لظى حرب والهروب لا يكون غاية، فحياة النزوح وخاصة في المخيمات ليست سهلة لما في دروبها من تعرجات وكسور.

*****

ها هي شمس يوم النازحين الأول تشرف على الأفول، وها هي عائلة غزل تتأهب للراحة لكن أين؟ فالجميع مدعوين إلى سبات ليلي خانق تحت أشجار الزيتون مفترشين الأرض وملتحفين السماء. لم يكن أحد في انتظار وصولهم ليرتب لهم مكاناً يأوون إليه فقضوا ليلتهم الأولى كغيرهم جائعين متعبين.

ليلة النازحين الأولى لم تكن ككل الليالي، ليلة كانت لهم الأولى في كل شيء، ليلة أصبحت الكآبة والوجوم واقعًا ملموسًا لهم. افترشوا فيها ثرى أرض تكثر فيها أشجار الزيتون والتحفوا فيها سماء توارت نجومه خلف غيوم متراكضة خجلة منهم، شيء وحيد كان يعينهم على بلواهم هو وجود الكثيرين أمثالهم إلى جانبهم يشاركونهم المكان وألف قصة وحكاية.

في ليلة نزوحهم الأولى لم تشهد غزل ابنة العشرة سنين مثل نومتها تلك بحضن أمها وقرب أخويها منذ سنوات عندما كانت بنتًا مدللة ابنة خمسة سنوات لا تنام إلا بين والديها مستدفئة في حضن أبيها مغمورة في حنان أمها، في ليلتهم تلك نامت بينهم لإعطائها الشعور بالأمان من أي هائم ليل، ومن أي صوت يأتي من قريب أو بعيد.

في ليلتهم الأولى تلك، الكل كان ينتظر انبلاج الصبح على أحر من جمر ليجهد نفسه ويزاحم أي كان على استلام خيمة تأوي شعثه حتى ولو بترجي وتوسل.

ليلة كان الجميع فيها أشبه باليقظ رغم التعب ماعدا الأطفال، في الصباح كان الجميع نشطًا ينتظر وصول موظفي المنظمات الخيرية لاستلام خيام يُكرمون أنفسهم فيها باستراحة محارب كانت قد بدأت جولته منذ أيام.

قضت غزل ليلتها الأولى تلك ككل الأطفال خائفة مرتعبة من كل شيء.. من حفيف الأشجار، من نقيق الضفادع، من صرير الصراصير، من نباح الكلاب، متمنية كغيرها أن تعود يومًا ما مهما طال ظلامه إلى بلدتها الجميلة وجبلها الأشم تستنشق عبير نسيمه، تقبل ترابه، تستعيد تواصلها مع صديقات المدرسة، تعود إلى ألعابها باربي وغيرها تلعب معهم تعتذر لهم عن غيابها المفاجئ، تعاود العيش معهم عيشة هانئة مستدفأة باهتمام أهلها ناسية فوضى النزوح واستباحة الخصوصيات وغياب الأنيس والونيس من أهل وجيران.

ليلة نزوحهم الأولى كانت قاسية عليهم ظالمة لهم بكل المقاييس، كلهم كانوا فيها قابعين في ظلام دامس لا يعرف أحد منهم متى ينجلي صباحهم، ومتى تحفظ ماء وجوههم، وتُحترم إنسانيتهم ولو بحدودها الدنيا.

في اليوم التالي، بعد عناء وجهد وقبل حلول المساء استلمت عائلة غزل خيمة عائلية منصوبة بين ألف خيمة ابتعدت كل واحدة عن جاراتها القريبات من الجوانب والخلف بمترين، وخمسة أمتار من الأمام. يومها أُعطيت الخيم بعشوائية تامة على أي عائلة انطبق عليها شروط النزوح دون إعطاء أي تفضيلات لجار قريب أو بعيد فاختلط القاصي بالداني والحابل بالنابل، لكثرة عدد النازحين كانت الأولوية للعوائل، وزعت خيمة لكل عائلة مهما كان عدد

أفرادها، المهم أن تنستر فيها تحت سقف حتى لو كان قماشيًا ومتحركًا لكنه يبقى واقيًا من أي لسعة برد ومطرقادم، يومها كان المكان كمحشر وسط بحر من الخيام في منطقة جغرافية أقل ما يُقال عنها حجرية، لكنها جمعت كمًا هائلاً من العوائل والأفراد كلهم كانوا في سباق من يستلم أولاً.

من محاسن الأمر أن المنظمات الخيرية الراعية كانت قد هيأت الأراضي في الشمال وسوتها ونصبت فيها الخيام بشكل منتظم قبل تسكينها تحسبًا لأي طارئ، سعة مخيم أهل غزل كان ألف خيمة نُصبت على أربعة صفوف طال الصف الواحد لزهاء 1500 م وطريق مفروش بالبحص في الوسط، اكتظت المنطقة بما رحبت مع توافد آلاف العوائل من مدن وبلدات المحافظة والمحافظات الأخرى فزادت الحاجة وأصبحت ضرورة لبناء مخيمات أخرى وخيم خدمات وخزانات مياه في مناطق غابت عنها أبسط الخدمات الأساسية كالصرف الصحي والطرق المعبدة وشبكات المياه والكهرباء.

*****

كهل ولكن..

ليس بالشمال وحسب بل في كل أرجاء الوطن كانت التكاليف باهظة، حرب دمرت مُدنًا وعمرّت أخرى، ألم يقولوا إنه كلما كانت فراشات الليل قريبة من مركز الضوء كلما تأذت بوهجه أكثر فكيف الحال إن كانت داخله وسط لظى نار لا ترحم.

مدن كبيرة وَهَنَ بريقُها وبلدات صغيرة ذاع صيتها وعلا شأنها مع الحرب، فما كان قبل عام 2011 لم يكن مثل بعده، كانت سرمدا بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها الآلاف البسيطة، ولا يتجاوز مبانيها الطابقين في أحسن الأحوال تفصل بينهم شوارع ضيقة وملتوية تفتقد للكثير من المحال التجارية والخدمات فإذا ما احتاج أهلوها لعلاج أو حاجيات ضرورية نزلوا إلى مركز المحافظة في إدلب أو ذهبوا إلى مدينة حلب. لكن حالها تغير خلال الحرب فأصبحت كغيرها من مدن أقصى الشمال حاضرة تأوي مئات الآلاف من أبناء الوطن وتوفر متطلبات حياة الملايين اليومية مثل أي مدينة كبيرة في الوطن فعلا شأنها وذاع صيتها وتفوقت عن مركز المحافظة نفسه، فيها فُتحت المولات التجارية الكبيرة ذات الطوابق المتعددة، وُشيدت المجمعات السكنية وأُنشئت المستشفيات والجامعات فكانت بحق مصدرًا لاستجرار لعاب المستثمرين الذين هرعوا إليها من كل حدب وصوب لاهثين لها لا لغيرها لميزتها

التنافسية بموقعها الجغرافي القريب جدًا لمركز باب الهوى الحدودي مع تركيا، بالإضافة لسعي الآلاف من النازحين الذين أقاموا فيها أو في جوارها من قرى ومخيمات كل حسب مهنته وسعته المالية، كثيرون منهم سعى لأن يحظى فيها بموضع قدم باحثًا من خلاله عن رزق كريم يسانده في مواجهة صعوبة العيش ورعونة النزوح.

نزوح مئات الآلاف باتجاه الشمال السوري خلق فرصًا جديدة وتنوعًا ملحوظًا شجع أبا حسين.. أحد التجار الحلبيين وغيره من التجار أن يتحرك بتجارته حيث الكثافة السكانية العالية، قصد أقصى الشمال مع كثير من أصحاب المهن الاستهلاكية، لمزاولة مهنهم الأساسية فكان منهم الخياط والجزار والبقال والفران والحلونجي وتاجر الأقمشة.

نزح أبو حسين مع عائلته وتجارته على عجل من حلب تاركًا وراءه دارًا كبيرة بغرفها الواسعة ومرافقها العديدة، ليستقر به الحال في سرمدا القريبة من الحدود التركية البعيدة نوعًا ما عن طبول الحرب ووقعها الثقيل.

لم يكن أبو حسين بائعًا عاديًا للأقمشة النسائية، بل كان صاحب محل أقمشة نسائية فاخرة كالجوخ، والحرير، والمخمل، والشيفون، والبروكار، والكريب، والدانتيل.. تاجر بها أيام الدهب في حلب فهيأت له عيشة مريحة تسودها راحة مالية شجعته على تصابيه وعشقه لصغيرات السن. اختار كغيره مع تردي حال

التجارة في حلب واستمرارية الحرب فيها أن ينزح مع عائلته وتجارته من مدينته ويعيش في أقصى الشمال، لكن أبدًا ليس كأي نازح هناك. كان معظم زبائن محله نساء يأتين إليه في مهمة تجهيز عرائس أو شراء أقمشة بهدف التجارة والتواصي رغم ندرة الموارد وخواء الجيوب، أو خياطات، بالإضافة لقلة من التجار.

أبو حسين تاجر أقمشة معروف أبًا عن جد في سويقة حلب (المدينة)، رجل تجاوز السبعين من عمره يتمتع بصحة جيدة، لم يحن ظهره عداد السنين ولم ترهقه أزمات الدهور، ولد وفي فمه ملعقة من ذهب يميل في طبعه وعلاقاته إلى الجدية ويكره الهزل، قليل الكلام في بيته، لشعوره بالحرمان العاطفي كما يدعي، كثير الحركة والترغيب في عمله، يميل إلى العناد والنكد أكثر من الليونة والانبساط، ترى بين حاجبيه عقدة لا تنفرج إلا بانفراج مادي منتظر، حرصه الشديد وانشغاله في عمله ساعده على توسيع تجارته.

لم يكن الرجل وحده من التجار والصناعيين الحلبيين الذين تركوا حلب المدينة بعد أن وصلت إليها لظى الحرب وأخطبوط الدمار، منهم من عبر الحدود ووصل إلى مصر وتركيا ودول أخرى فازدهرت تجارتهم هناك ونمت صناعتهم، مدينة غازي عنتاب التركية خير مثال على ذلك فقد أصبحت شبيهة بحلب الصناعية بعد وصول المعامل الحلبية إليها، ومنهم من لم تتح له الفرصة

الكافية والوقت المناسب لعبور الحدود، فاكتفى بالنزوح الداخلي وكان له الاستقرار في الشمال قريباً للحدود كملاذٍ آمن له ولتجارته.

حرب أسفرت عن نتائج كارثية في الأرواح، وهروب الرساميل واليد العاملة الماهرة، ودمار البنى التحتية. مما أدى إلى تحول مركز المنظومة التجارية في شمال سورية من مدينة حلب إلى مناطق أخرى حدودية. بلدات صغيرة وقرى بعيدة في الشمال تحولت بفيضان النزوح إلى مدن كبيرة وبلدات مكتظة، لقربها من الحدود المنزوعة من السلاح بقوانين دولية، لم تكن تلك البلدات والقرى المقصودة رحيمة بقاصديها، بل زادت عليهم الأوجاع وأثخنت فيهم الجروح وأنفذت عندهم الجيوب وأشعرتهم بالغربة داخل الوطن.

في حلول عام 2014م تعرضت مدينة حلب عاصمة الاقتصاد السوري لتهميش فعلي بعد إغلاق الطرق التجارية المؤدية إليها، الأمر الذي أدى إلى ظهور حلب بديلة عن حلب الأم في بلدة سرمدا حيث أصبح فيها سوق مواتية تتمتع بأمان نسبي في الشمال الغربي بعيدًا عن ممارسات الحرب بحكم قربها من الحدود التركية، لتكون بوّابة سورية التجارية إلى العالم الخارجي، لقربها من معبر باب الهوى الحدودي. فتدفّق إليها السوريون النازحون داخلياً بأعداد كبيرة. وبين ليلة وضحاها، تحوّلت سرمدا البلدة التي لا يتجاوز عدد

سكانها 15 ألف نسمة قبل العام 2011م إلى مدينة مترامية الأطراف ومتعددة الأنشطة بلغ عدد سكانها حوالي 300 ألف نسمة.

سرمدا كغيرها من مدن وبلدات الشمال السوري جذبت مئات الآلاف من النازحين الفارين من رزايا الحرب المشتعلة ومفاجآتها، للأسف تلك الجاذبية أسالت لعاب أصحاب البيوت والمحال التجارية وشجعتهم على الجشع، أصبحت أنوفهم مرفوعة ورؤوسهم شامخة وكأنها في قلعة بما يمتلكون من عقارات بعد أن زاد عدد النازحين في منطقتهم، أغلب أصحاب العقارات هناك لم يكونوا أنصارًا للمهاجرين الوافدين، بل زادوا عليهم الطين بلة وضيقوا في وجوههم كل واسع. فما كان قبل الحرب لا يُسكن بالمجان صار يؤجر بالدولار ويُدفع له بالمقدم لشهور.

أبدًا لم تكن رزايا الحرب فقط من همجية قتل برع فيها متقاتلون كانت فيما قبل بعيدة كل البعد عن الثقافة السورية المعروفة بالرأفة والرحمة، ولا من تعددية خصوم، و لا من صعوبة تطبيق لرقابة أممية لمجريات الاقتتال، ولا من استخدام أسلحة جديدة ومتنوعة على شعب لا يملك قوت يومه، ولا من رصاصة طائشة، ولا من برميل متفجر، ولا من صاروخ أعمى، إنما كانت أيضًا من جشع تاجر، ومن طمع مؤجر، ومن قناص فرص، ومن مستغل لعوز أسر، ومن انحدار قيم أخلاقية كان يتصف بها عموم المجتمع السوري. للأسف كم سمعنا عن تشف جار بجاره، وكم

لاحظنا انتشار مفهوم التقصي والتخوين، وكم اشمأززنا من تعظيم السب والشتيمة لكل من يخالف رأيًا لا يقدم ولا يؤخر.

حرب عمياء أفلحت في القضاء على كل جميل فينا، وأبدعت في التهام كل أخضر، أسموها حربًا بالوكالة لكن وقودها شعب واحد ونتيجتها أرض محصودة.

لطالما سمعنا خلال الخوف الجماعي أن النفوس تستكين، والخصوم تنتهي، والشتات تجتمع، والأفراد تزهد، لكن للأسف بخوفنا تفرقت نفوسنا وساءت تصرفاتنا وتركت فينا تغيرات جوهرية لا يمكن تجاهلها، فمهما كذبنا على أنفسنا وتظاهرنا بعدم التغيير وإننا ما زلنا على أخلاقنا وعاداتنا وأعرافنا الأولية.. فأفعالنا تنفي أقوالنا.

للأسف مضت حفاوتنا ببعضنا وجف ينبوع الشوق لبعضنا، وقل احترامنا لكبيرنا وعطفنا على صغيرنا، وزاد عندنا الشك وضعف اليقين وظهر التخوين، وتعددت ألفاظ الشتيمة على ألسنتنا وتشوهت الفضيلة.

للأسف قَلَّ الاحترام بين الناس وشاع التخوين رغم أن عاداتنا العربية والإسلامية تحثنا على أن نحترم كبيرنا ونعطف على صغيرنا، ولكن في الحرب تغير الحال وأصبح الاحترام مشروطًا، فلئن خالفتني الرأي فأنت بعيد عن احترامي وتقديري، بالعكس أنت هدفًا لاحتقاري وشتائمي مهما كانت درجة العلاقة السابقة بيننا، وإن

كنت تتوافق معي بالرأي فاحترامنا يدخل في منحى تبادلي ، فكما أنت تحترمني أنا أحترمك ولا يمكن أن يكون غير ذلك وإلا أصبح الاحترام خوفاً وشعورًا بالدونية أمام الطرف الآخر، وإلا لماذا أحترمك إن لم تحترمني، ولماذا تفرض عليّ نفسك إن لم أجد عند ك المثل من التقدير والاحترام؟

كم غيرت بنا الحرب وجففت فينا قيمًا وفضائل كنا نفتخر بوجودها بيننا، وكيف صنعت فينا أهوالها، وكم عطلت الكثير من عاداتنا وتقاليدنا حتى أصبحت أخلاقنا في رؤوس أنوفنا.

للأسف الحرب الدائرة أضافت إلى مجتمعنا الكثير من الرزايا وغيبت الكثير من الجمائل، كثيرون من بيننا أصبحوا أشخاصًا مؤذيين ومجرمين وحاقدين وممتلئيّ بطون وخاويّ عقل، يطعنون بالظهر ويشككون بكل خير وجميل ما زال متواجدًا عند القلة القليلة.

*****

وصل التاجر أبو حسين إلى سرمدا في عام 2018م مثله مثل كثيرين من التجار الذين رأوا فيها مركزًا مستقرًا لاستمرارية تجارتهم، فنقلوا لها أعمالهم، لقربها من باب الهوى الحدودي وللكثافة السكانية الكبيرة التي احتوتها المنطقة.

في مركز بلدة سرمدا التي تحولت بسنوات قليلة خلال الحرب المشتعلة إلى مدينة جاذبة للاستثمارات الداخلية.. فتح الرجل

محله الأول لتجارة الأقمشة النسائية، وفي غضون عامين وسع نشاطه وفتح محلاً ثانيًا له واشترى دارًا متعددة الغرف والمنافع له ولولديه المتزوجين.

لطبيعة عمله، معظم زبائنه من النسوة يأتين لشراء أقمشة لهن أو لتجهيز عرائس الأمر الذي اعتاد فيه الرجل على لطف وتليين الحديث معهن، والأخذ والرد منه كطريقة متبعة خاصة من أصحاب المحلات الذين يتعاملون مع النساء بشكل يومي، بهدف الدعاية والتسويق لتجارتهم.

لتكرار زيارة بعضهن، أحاديث عدة كانت تأخذه معهن بعيدًا عن البيع والشراء، منهن من كان يمازحهن ويطلب منهن إيجاد عروس له، بسبب مرض زوجته القريبة له بالعمر وحرمانه العاطفي كما يدعي.

زوجته الأولى أم حسين سبعينية أيضًا صابرة ومحتسبة على مرضها المزمن، وزوجها الشاكي من الحرمان العاطفي، وزواجه المتكرر من صغيرات.

لم يكن غريبًا لأم حسين أن يُعاود زوجها الكرّة ويُفكر في الزواج من فتاة قاصر إرضاءً لتصابيه فهو الذي قد تزوج بعدها باثنتين، الأولى.. كانت رهف.. شابة لم يكتمل عمرها السبعة عشر ربيعًا لم تستمر معه أكثر من سنة تركته ونجت بنفسها، بعد أن أظهر تغيرًا واضحًا في تعامله معها وتجاهله لها كزوجة، والثانية

كانت هند.. أيضًا شابة في ريعان شبابها لم يتجاوز عمرها العشرين، لكنها لم تمض معه عامًا إلا وظهر مرضها الذي أخفاه والداها عنه، فطلقها تجنبًا للانشغال بها والصرف عليها من خلال زيارة الأطباء والمستشفيات، فأعطاها مبلغًا وسرحها سراحًا جميلاً كما ادعى.

زيجاته الثلاثة السابقة كانت في حلب قبل النزوح، بعد النزوح وبعد أن استقر وضعه وعادت تجارته لما كانت عليه من ازدهار عادت به "حليمة إلى عادتها القديمة" وعادت إليه نشوة التصابي والتفكير بالصغيرات، حُجته أن ما يسعى إليه كان بالحلال.

لم تكن له الحرب ولا مضاعفاتها برادع، لكنه خاف من وباء كورونا الذي راح يتنشر عالميًا، ما خوفه منه تأثيره على تجارته وتعطيل حركة البيع والشراء باعتبار أن ضرره بدأ يظهر بالإغلاق الجزئي ثم الكلي في دول كثيرة، فراح يكسر شوكة الاقتصاد عالميا شيئًا فشيئًا، وراح يحصد أرواحًا بريئة هنا وهناك. وباءٌ انتشر فجأة لم يُعرف منشأه ولا مقصده ولا نهايته، ضحاياه كانوا البشر والاقتصاد معًا،

للأسف الكل في الشمال أظهروا الاستهانة بالوباء كون سوطه مهما كان حادًّا لن يكون أقصى حدة ووجعًا من سياط حرب أدت إلى كثرة الوفيات، وكثرة السرقات، وحالات الخطف، لذا لم يكن

هناك عزلاً ولا إغلاقاَ ولا حتى لقاحًا فتضاعفت الإصابات وازدادت الوفيات.

لمزه كثيرون من التجار ممن حوله لتصابيه ونعتوه بـ "مزواج القاصرات" و"متعدد الزوجات" كان يطرب لسماع ذلك ويعتبره رجولة، كثيرون منهم يفتقدها كما يزعم، يبتسم لهم ضاحكًا من ذلك رغم معرفته المسبقة بأن أطباء نفس قد شخصوا حالات شبيهة لحالته على أنها مرض نفسي ولها اضطرابات وتدعى (البيدوفيليا - Pedophilia)، وهي اشتهاء الأطفال والقُصَر وخاصة البنات القاصرات دون سن 18. حيث لا ينجذب المصابون فيها الذين هم بالأغلب من تخطوا سن الخمسين نحو الكبيرات، إنما نحو الصغيرات من خلال استغلال فقرهن وحياتهن الأسرية المضطربة.

لأن طلب إيجاد عروسة له تكرر أمامها أكثر من مرة، تجرأت أم علي.. إحدى النساء المعتادات على زيارة محل أبي حسين، لشراء ما يلزم لزبوناتها.. وسألته:

- هل أنت جاد بالزواج يا حاج؟

فأجابها وبكل ثقة:

- نعم جاد ومن يمنعني؟

أم علي.. أرملة فقدت زوجها في الحرب، تلتقط رزقها ورزق أولادها الأربعة بشراء وبيع ألبسة جاهزة وأقمشة للنساء في بيوتهن، زيارتها المكوكية للنساء في المخيمات والبيوت ساعدها

بمعرفة أوضاعهن وأوضاع عوائلهن، فهذه أرملة مثلها وتلك مطلقة، وتلك فقيرة تنتظر المساعدات، وهذا عاطل عن العمل بسبب بتر ساقه، وذاك لا يجد عملاً ولو بأرخص الأجور، وكلهم بحاجة ماسة يجابهون الواقع بتذمر ويأملون بانفراج قريب لتستمر بهم الحياة، لزيارتها المتعددة لدكان أبي حسين لشراء أقمشة بهدف التجارة، تعرفت إلى بحبوحته المادية وازدهار تجارته، فأجابته:

- بالطبع لا أحد يمنعك .

للأسف في حياتنا المأزومة من يمنع صاحب الجيب المليء وصاحب السلطة من تحقيق ما يريده إلا نفسه، فالكل يتقرب منه يُصفق له سواء أعطاهم أو منعهم.

نشأ أبو حسين في بيئة لا يهتم بتعب غيره، أناني في تصرفه وتفكيره لا يهمه إلا نفسه، يعتبر وجود الآخرين في حياته تكملة له من أجل خدمته ليس أكثر، فأمواله ساعدته على تصابيه وزواج ما يريد من صغيرات، لم يكترث أبدًا بعوز الآخرين بل استغلها وعمل على تسخيرها لصالحه.

كم جميل كان عليك يا أبا حسين وعلى أمثالك الميسورين أن تثبتوا إنسانيتكم ومشاعر الرحمة عندكم، وتظهروا تعاطفكم مع من حولكم في ظل هذه الظروف القاهرة فاذا ما رأيتم دموع يتامى سارعتم بمسحها، وإذا ما قابلتم أو سمعتم عن ضعاف مكلومين قدمتم مساعدة لهم، كم كان جميل منكم أن تعملوا على إسعاد الآخرين..